# جذور مبدأ الاستقلال لدى النخبة الوطنية التونسية
# في جامع الزّيتونة ما بين 1881 – 1920 م

أ.د: علي غنابزية
أ. كوثر هاشم
جامعة الشّهيد حمّة لخضر / الوادي

**********

**الملخّص** :

تتناول الدّراسة دور النّخبة الوطنيّة الزّيتونيّة في العمل الوطني التّونسي وفي بلورة مطلب الاستقلال ، في الفترة ما بين 1900 باعتبار أنّ مطلع القرن العشرين مثّل بدايات الوعي والنّهضة الوطنيّة في تونس ، وصولا إلى سنة 1920 عندما أسّس الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي الذي يعتبر رائد الحريّة الوطنيّة التّونسيّة الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي.

**الكلمات المفتاحية:** مبدأ الاستقلال النخبة الوطنية.. جامع الزيتونة. الحماية. الشعب التونسي

**Abstract:**

The study address the role of the national elite al-Zaytunah issues in the work of the Tunisian national, in elaborating the independence demand, in the period between 1900 since the beginning of the twentieth century, such as the beginnings of awareness of National Renaissance in Tunisia, access to the year 1920 when the foundations of Sheikh Abdul Aziz Ta 'allibi, which is considered the pioneer of freedom, Tunisian National Tunisian Constitutional Liberal Party.

**Keywords** : The principle of independence National elite. Zitouna Mosque. Protection. Tunisian people .

.

## مقدّمة :

لم يكن جامع الزّيتونة مؤسّسة دينيّة تربويّة يتلقّى فيها أبناء تونس تعليمهم فحسب، بل كان الملهم الرّوحي ، والمدافع القوي عن مقوّمات الهويّة الوطنيّة التّونسيّة، وانتمائها العربي والإسلامي، منذ تأسيسه في القرن الثّاني للهجرة ، ومثل المؤسّسة التي أنجبت العديد من الوطنيين التّونسيّين الذين تزعّموا حركة المقاومة بمختلف أشكالها ضدّ الاحتلال الفرنسي، وساهم مساهمة فعّالة في تنوير الشّعب التّونسي وإصلاحه.

ولا شك أن النضال وجد له حجما معتبرا في فضاء الجامع، وتبلور من خلال النشاط الحثيث للطلبة والعلماء، وأثمر عملا وطنيا فعالا، ارتقى إلى الفعل السياسي الجلي. فما هو دوره السياسي الحقيقي، وهل ساهم في بعث الحركة الوطنية، وما هي جهوده الفكرية في تنوير الرأي العام التونسي، ونشر قيم الوطنيّة، حتّى توصّل إلى ضرورة المطالبة بحقّ الشعب في التحرّر والاستقلال ؟

### أوّلا: موقف جامع الزّيتونة من الحماية والسّياسات الفرنسيّة :

انطلاقا من أسس ومبادئ الزّيتونة، وقيمه الوطنيّة المستمدّة من العروبة والإسلام، والدّاعية إلى ضرورة الاستقلال بالمقوّمات الوطنيّة عن كلّ ما هو أجنبي ودخيل، فقد رفض الانصياع لكلّ محاولات سلطات الحماية الفرنسيّة التي استهدفت تغريب وفرنسة المجتمع التّونسي، لأن القيادة الفكريّة خلال السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي لتونس كانت خاضعة للمدرسة الزّيتونيّة ، المؤثرة في الحياة الثّقافيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة، وهي الموجّهة لأغلب التحرّكات الوطنيّة، والتجمّعات الحزبيّة داخل المجتمع التّونسي، وبذلك يعود النّشاط الوطني لدى النّخبة الزّيتونيّة إلى بداية فرض الحماية، حيث احتجّ العلماء الزّيتونيّون على إمضاء معاهدة باردو في 12 ماي 1881 ، واتّفاقيّة المرسى في 08 جوان 1883 ، والتي صادق البرلمان الفرنسي عليها؛ وكردّ فعل منها على هذا الاحتجاج، قامت سلطات المحتل الفرنسي بفصل البعض من وظائفهم ، بينما اختار آخرون الهجرة للعمل خارج الدّيار، من أجل حشد التّأييد وتعبئة رّأي العالم الإسلامي في انتظار الفرصة المواتية للعودة إلى أرض الوطن، ومن بينهم الشّيخ صالح الشّريف [1] (شترة، خير الدين. (2009). الطلبة الجزائريّون بجامع الزيتونة 1900 – 1956 ، ج 3 ، الجزائر، دار البصائر للنشر ،ص 62 ) ، ومحمد الخضر حسين[2] (المرجع السابق ،ص 34 ) ، وإسماعيل الصفايحي (المرجع السابق ، ج1، ص 710 ) وغيرهم.

كانت فرنسا متيقّنة من خطر جامع الزّيتونة عليها، وعلى سياساتها في تونس لذلك وقفت في سبيل إصلاح حالة الجامع ، وتحديث مناهجه وأساليبه منذ إعلانها الحماية 1881، وارتكزت مخطّطاتها على عرقلة تطوير الثّقافة القوميّة، ومضايقة اللغة العربيّة حتّى لا تكون أداة النّهضة الفكريّة ، والثقافية في البلاد التّونسيّة، ومنع الزّيتونيّين من تقلّد الوظائف الإداريّة بحجّة أنّهم ليسوا مثقّفين ثقافة فرنسيّة، وإلى جانب ذلك شنّت سلط الحماية حملة دعائيّة مغرضة من خلال صحفها لتأليب الرّأي العام الفرنسي، والعالمي على الجامع الأعظم وخرّيجيه، ووصفتهم بالجمود والتصلّب والخمول، وفي الوقت ذاته لجأت إدارة الاحتلال إلى مناصرة

---

[1] **صالح الشّريف**: من أصول جزائريّة ، ولد بتونس ، التحق بالزيتونة سنة 1881 ونال منه شهادة التطويع سنة 1888 ، تولى التدريس سنة 1894 ثم مدرسا بالمدرسة العصفورية سنة 1897، ونظرا لنشاطه السياسي المكثف تعرّض لمضايقات السلطات الاستعمارية ممّا اضطرّه للهجرة إلى إسطنبول سنة 1906 ،كانت له أنشطة سياسية ، وتعليمية مكثفة في المشرق العربي ، ودور كبير في النضال المهجري الجزائري التونسي بأوربا أثناء الحرب العالمية الأولى.

[2] **محمد الخضر حسين**: من أصل جزائري ، ولد بنفطة التونسية ، ثم انتقل مع والده إلى تونس العاصمة ودخل الزيتونة حيث تحصل على شهادة التطويع ، و في سنة 1904 أصدر مجلة السعادة العظمى وتولى القضاء في بنزرت ، ثمّ درّس بالجامع الأعظم والمدرسة الخلدونية، هاجر مرغما إلى دمشق ثم مصر سنة 1922 ، أين درّس بجامع الأزهر وأنشأ جمعيّة الهداية الإسلامية، ونال عضويّة هيئة كبار العلماء الأزهريين ، وأصدر عددا من المجلات منها : نور الإسلام – لواء الإسلام ،كما اختير إماما لمشيخة الأزهر ، وتوفي بالقاهرة سنة 1958.

البدعة والخرافة، فأغدق على أصحابها بالأموال، وأيّدتهم معنويّا، ومنحتهم مكانة ومهابة، ولقوا بذلك التّأييد والمساندة على حساب العلماء الزّيتونيّين المسلّحين بالثّقافة العربيّة والإسلاميّة والإصلاح ، والرّافضين لاستمرار الحماية ،ومطالبين بتغيير الوضع (فلاحي، رابح.(2008). جامع الزّيتونة و الحركة الإصلاحيّة في الجزائر 1908 – 1954 . رسالة ماجستير ، جامعة منتوري بقسنطينة ، الجزائر . ص ص 111-.112.) ورغم ما واجهته النّخبة الزّيتونيّة من مضايقات من الاحتلال إلّا أنّ ذلك لم يثن من عزمها، ولم يحدّ من مقاومتها للاحتلال، حيث عادت بعلمائها وطلبتها بقوّة إلى مسرح العمل الوطني منذ العشريّة الأولى للقرن العشرين، وبرز ذلك جليّا من خلال معارضة الزّيتونيّين لإجراءات بلديّة مدينة تونس، بخصوص الرّفع في سعر الماء الصّالح للشّرب واعتبرتها مخالفة لأحكام الشّريعة الإسلامية.( شترة ، خير الدّين: ج1 ، المرجع السّابق ، ص 711.) فضلا عن موقفهم الجريء من أحداث مقبرة الزّلاج ، عندما حاولت بلديّة تونس تسجيل المقبرة التي كانت قانونيّا وقفا من أوقاف المسلمين، ومن مسؤوليّة "جمعيّة الأوقاف " غير أنّ هذه الأخيرة أبلغت البلديّة بأنّها غير قادرة على الإشراف عليها خاصّة أنّها لا تتمتّع بأيّ وقف يضمن لها دخلا لتسيير شؤونها ، فعمد مسؤول البلديّة إلى تقديم طلب إلى المحكمة العقاريّة المختلطة في 26 سبتمبر 1911 موقعا من كاهية رئيس البلديّة لتسجيلها، (المرزوقي ،محمد و الجيلاني ،بن الحاج يحي. (1974). معركة الزلّاج . (ط2). تونس. الشّركة الوطنية للتوزيع .ص 17- 18) وفي 07 نوفمبر دعي سكّان العاصمة تونس لحضور عمليّة التّسجيل فاحتشد مابين 2000 و3000 تونسي مندّدين، ومنتفضين رافضين أن تصبح الزلّاج أرضا في قبضة المحتلّ الفرنسيّ، (بن جابو ،أحمد. (2011). المهاجرون الجزائريّون و نشاطهم في تونس 1830 – 1954 . أطروحة دكتوراه ، جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، الجزائر، ص 219) لكن سرعان ما تحوّلت إلى أحداث دامية بسبب إطلاق أحد مسؤولي الشّرطة الفرنسيّة الرّصاص، فقتل به أحد التّونسيين ممّا أثار بقيّة المحتشدين، واختلط الحابل بالنّابل، واشتبك الطّرفان، حتّى راح ضحيّتها عدد من التّونسيين، زيادة عن الجرحى والمتّهمين الذين بلغ عددهم أكثر من 800 تونسي قدّموا للمحاكم، منهم 72 شخصا مثلوا أمام المحكمة الفرنسيّة الجنائيّة في قضيّة واحدة بتهم متعدّدة كالقتل، والمشاركة فيه، ومحاولة القتل، والسّرقة والإخلال بأمن الدّولة وغيرها، (المرزوقي ، محمّد والجيلاني بن الحاج يحي. المرجع السابق . ص 38) وكلّها كانت تهما واهيّة مزيّفة لفّقتها سلط الحماية لهم انتقاما منهم على معارضتهم لها، ومواجهتها في يوم الزلّاج.

لقد كان جامع الزّيتونة معقلا لاحتجاجات التّونسيّين على تسجيل المقبرة، عندما كتبت المعلّقات على الأبواب تدعوا السكّان إلى التجمّع أمامها، (شترة ،خير الدين. ج1 المرجع السابق .ص 711) احتجاجا على ضمّها، لذلك حمّلت السّلطات الفرنسيّة، حركة الشّباب التّونسي ـ التي كان يتزعّمها علي باش حمبة[1] ـ (الزّمرلي، الصّادق .( 1986). أعلام تونسيون . تقديم وتحقيق : حمادي الساحلي .( ط1). بيروت. دار الغرب الإسلامي ، ص ص 141 – 144) مسؤوليّة الحوادث فعطّلت جريدتها التّونسي، وأعلنت الأحكام العرفيّة في البلاد التي بقيت تحت الحكم العسكري منذ 1911 إلى غاية 1922.(ثامر ، الحبيب . هذه تونس . مطبعة الرسالة ، ص 84).

ورغم الآثار العميقة والآلام التي خلّفتها هذه الأحداث في نفوس التّونسيّين إلّا أنّ تلك الأحداث قد بيّنت أنّ روح المقاومة قد ولدت في الجماهير بعد أن كانت لا تشعر بها إلّا النّخبة المثقّفة وحدها، (جوليان، شارل أندري. .( 1976). إفريقيا الشّماليّة تسير (القوميّات الإسلاميّة و السيادة الفرنسيّة ) .ترجمة المنجي سليم وآخرون ، تونس. الدار التونسية للنشر ، ص 89 ) ، إذ لم تلبث أن برز صوت معادي للأجانب في تونس خاصّة منهم الجالية الإيطاليّة التي كانت تتمتّع بمكانة هامّة في شركة الترام للنّقل،

[1] ) **علي باش حمبة** : ولد سنة 1876 ، من أصول تركيّة من منطقة الأناضول ،كان جدّه رئيسا لجند الأتراك، فورث عنه حبّه لنفوذه وللنظام، تعلّم بالمدرسة الصّادقية وتخرّج منها ، ثمّ أصبح وكيلها ، كما تمكّن من إعداد الإجازة في الحقوق والنجاح فيها، أنشأ جمعية قدماء الصادقيّة سنة 1905، وأصدر جريدة التونسي بالفرنسية سنة 1907 ، وأشرف على تحريرها كما ترأس حركة الشباب التونسي الوطنيّة ، ورغم تشبّعه بالثقافة الفرنسيّة إلّا أنّه عرف بنزعته التحرّريّة ومعاداته للاستعمار، توفّي سنة 1918 .

التي كان يتقاضى فيها العامل التّونسي أجرا زهيدا مقابل ما يتقاضاه العامل الفرنسي والإيطالي، (مناصريّة ، يوسف. (2014). دور النّخبة الجزائريّة في الحركة الوطنيّة التّونسيّة بين الحربين العالميّتين . الجزائر، دار هومة ، ص 45) ، لاسيما بعدما تسبّب سائق إيطالي في قتل طفل تونسي يوم 09 فيفري 1912، يومئذ قرّر التّونسيّون مقاطعة ركوب التّرامواي، وتزامن ذلك مع تأثّرهم بما كان يحدث في الجارة طرابلس التي احتلّها الطّليان منذ 1911، وطالب العمّال منهم بالمساواة في الأجور بينهم وبين بقيّة العمّال الأجانب.(جوليان ، شارل أندري . المرجع السابق . ص 90) وأصرّ التّونسيّون على موقفهم، وشجّعهم على ذلك خُطب أئمة المساجد، وشيوخ الزّوايا، والتفّوا حول جريدة التونسي،[1] (الشريف ،محمّد الهادي . تاريخ تونس من عصور ماقبل التاريخ إلى الاستقلال ، ترجمة : محمد الشاوش ومحمد عجينة . (ط3). تونس. دار سراس للنشر، ص 113) لسان حال حركة الشّباب التونسي والصّحف الإسلامية الأخرى، وتألّفت لجنة للدّفاع عن حقوقهم على رأسها العديد من الشّخصيّات الزّيتونيّة منهم عبد العزيز الثّعالبي[2] (شترة ،خير الدين. ج3 . المرجع السابق ، ص 24) ، وعلي باش حامبة ، وحسن قلاتي[3] ( شترة ،خير الدين. ج3 . المرجع السابق ، ص 84) ومحمّد نعمان، إضافة إلى الأستاذ الفرنسي أوغوست ديستري( August Destrée) [4] (مناصريّة ،يوسف. المرجع السّابق ، ص 45) غير أنّ الإدارة الفرنسيّة اعتبرت مقاطعة التّونسيين لشركة النّقل الفرنسيّة، ومساندة الزّيتونيّين وجماعة الشّباب التّونسي لهم، مؤامرة سياسيّة ضدّها، فردّ عليها علي باش حامبة مخاطبا كاتب الحكومة العام قائلا : "إنّي أتساءل لماذا يراد الزجّ بفرنسا في أمور لا علاقة لها بمصالحها ... لن نرضى إذا ما ناقشنا أعمال إدارة الحماية أو شركة خاصّة مسؤولة عن مصلحة عموميّة... بأن يعترض علينا بدعوى أنّنا نكسر شوكة فرنسا في هذه البلاد "( المرجع السّابق ، ص 46).

اعتبرت فرنسا ذلك تحدّيا لها من قبل النّخبة التّونسيّة المثقّفة، ورأت ضرورة التخلّص من زعمائها، فسارعت بإصدار أوامر نفي كلّ أعضاء اللّجنة طبقا لقرار أصدرته في 13 مارس 1912، فنفي عبد العزيز الثّعالبي على إثره إلى فرنسا (جغام ،حسن أحمد. (1989). أمّة اجتمعت في إنسان . تونس. منشورات دار المعارف ، ص 7)، ومحمّد الخضر حسين المدرّس بجامع الزّيتونة ، والمدرسة الصّادقيّة، وعلي باش حمبة الذي استقرّ بالأستانة حتّى وفاته، (مناصريّة ،يوسف. المرجع السّابق ، ص 46) كما أعلنت حالة الحصار على البلاد، وصادرت الصّحف والمجلّات التّونسيّة كالإتّحاد الإسلامي و le tunisien والمشير ومرشد الأمّة والصّواب، (المدني ،أحمد توفيق. (2010). حياة كفاح .ج1 . الجزائر. عالم المعرفة ، ص ص 81 ، 82) وبفعلها الظالم،شُلّت الحركة الفكريّة ، والسّياسيّة في البلاد التّونسيّة .

## ثانيا : دور النّخبة الزّيتونيّة في إيقاظ الحسّ الوطني التّونسي :

إنّ نشأة الحركة الوطنيّة التّونسيّة كردّ فعل منظّم، لها مطالب ووسائل إبلاغ، قد ارتبطت بإرث الحركة الإصلاحيّة قبل فرض الحماية، بفضل الدّور الكبير الذي قام به الوزير خير الدّين التّونسي ذو التّكوين الزّيتوني العربي الإسلامي الذي نجح في إنشاء المعهد الصّادقي الذي أسّسه في 13 جانفي 1875( Guellouz ,Azzedine ,et outres : Histoire générale de la Tunisie. (2010). t.03 , Tunis, Sud éditions , p 420. )، وإصلاح التّعليم بالزّيتونة إلى أن تمكّن من إصدار دستور

---

[1] ) **جريدة التونسي**: اللسان النّاطق باسم حركة الشّباب التّونسي التي ظهرت سنة 1907، و ترأسّها المحامي ذو الثقافة المزدوجة العربيّة والأوربيّة علي باش حمبة .

[2] ) **عبد العزيز الثعالبي**: من أصول جزائريّة ، ولد بتونس سنة 1874، زيتوني الثقافة ، ساهم في تأسيس عدة صحف منها سبيل الرشاد 1895 والاتحاد الإسلامي 1909 ، زار العديد من دول العالم، ومثّل تونس في مؤتمر الصلح 1919 وأصدر كتاب تونس الشهيدة، عرف بأفكاره التحررية ونزعته المعادية للاستعمار، أسس الحزب الحر الدستوري التونسي، ثم نفي إلى المشرق سنة 1923 ، و لم يعد إلى تونس إلا سنة 1937.

[3] ) **حسن قلاتي**: من أصول جزائرية ولد سنة 1880 بقصر البخاري، هاجرت عائلته إلى تونس بعد احتلالها ، درس الحقوق بالجزائر وتحصل على الباكالوريا من معهد الحقوق بتولوز سنة 1902، و لما رجع إلى تونس اشترك مع علي باش حمبة في تأسيس حركة الشباب التونسي ، وجريدة التونسي سنة 1907 ، ترأّس جمعية الآداب المسرحيّة ثمّ الخلدونية وساهم في تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي ، توفي سنة 1966.

[4] ) **أوغوست ديستري** : هو مدير جريدة " بريد تونس " ( Le Couriere de Tunisie) والصّديق الشّخصي لعبد العزيز الثعالبي .

1861(Ibid , p 414) الذي اعتبر إعلانا لحقوق الإنسان والمبادئ الدّيمقراطيّة. (عبد الله ،الطاهر. الحركة الوطنيّة التّونسيّة رؤية شعبيّة قوميّة جديدة 1830 **– 1956** .( ط2) .دار المعارف للنشر ، تونس : ص 23).

إنّ اهتمام الحركة الإصلاحيّة بعصرنة التّعليم، ونشره جعلت منه إحدى أهمّ شروط نهضة البلاد التّونسيّة، ولما تشكّلت نواة الحركة الوطنيّة، جمعت بين إشعاع المؤسّستين التّعليميّتين جامع الزّيتونة، والمعهد الصّادقي 1876 ، والمدرسة الخلدونيّة 1896 من جهة، وتطوّر الصّحافة ( الحاضرة 1888 – 1911 ) وبداية عمل الجمعيّات ( جمعيّة قدماء الصادقيّة 1905 ) من جهة أخرى، (الشّابي ،محمّد لطفي.( 21،2007 أوت) . تفاعل التّعليم و الصّحافة و الجمعيّات مع الحركة الإصلاحيّة . جريدة الصّباح، تونس) الأمر الذي أدّى إلى إيقاظ الرّوح الوطنيّة لدى الفرد التّونسي، وتحوّلت فيما بعد إلى حركة مطلبيّة للحقوق والحريّات، توّجت بتبنّي مطلب الاستقلال.

وبالرّغم من جمود أساليب الدّراسة ومناهجها في جامع الزّيتونة إلّا أنّه كان أشبه بخليّة النّحل، اشتهر بالكثير من الشّخصيّات العلميّة والأدبيّة، تشدّ إليه الرّحال من الأقاصي خاصّة من أقطار بلاد المغرب التي كانت تعاني من ويلات عدوّ مشترك، ( شترة ، خير الدّين: ج1 ، المرجع السّابق ، ص 252.) كما أنّ ذلك لم يمنعه من أن يوجّه الحركة الوطنيّة التّونسيّة بروحه وتعاليمه، وقيمه ومبادئه العربيّة والإسلاميّة ، لأنّ جلّ المثقّفين التّونسيّين هم من خرّيجي الزّيتونة، والذين تقلّدوا عدّة مناصب في الدّولة كمعلّمين للغة العربيّة أو قضاة أو موظّفين في المحاكم ، أو محامين أو عدول موثّقين، وحتّى من رجال الشّرطة والحرس الوطني، فضلا عن الإداريين والأدباء والشّعراء والكتّاب، وكذا رجال النّهضة الإصلاحيّة كلّهم كانوا من ثمرة الزّيتونة أمثال الشّيوخ : سالم بوحاجب ، والشّيخ قبادو[1] ( الزمرلي ، الصادق. المصدر السابق . ص 36 وما بعدها.) ، والشّيخ بيرم الخامس[2] ( الزمرلي ، الصادق. المصدر السابق . ص ص 87 – 91) ، وغيرهم( عبد الله، الطاهر. المرجع السابق . ص 220).كما أنّ قادة الحزب الحرّ الدستوري التونسي ( القديم ) وفي مقدّمتهم عبد العزيز الثعالبي كانوا زيتونيّي النّشأة والتوجّه .

غير أنّ زعماء الحركة الوطنيّة، والمشرفين على تسيير جامع الزّيتونة لم يسعوا حقّ السّعي لإصلاح المنظومة الزّيتونيّة وعصرنتها (المرجع السابق . ص 221) ، على الرّغم من انتقاد البعض لأساليبه التّقليديّة في التّعليم وعلى رأسهم عبد العزيز الثّعالبي ، وذلك أثناء فترة دراسته بالجامع حين انتقد كتب التّدريس، ودروس مشايخه، واعترض عليهم في عدّة مسائل (بو الخضرة ،مسعودة مسعود.( 1995). عبد العزيز الثعالبي و دوره في الإصلاح الإسلامي . (ط1). بيروت: المكتبة العصرية. ص 33) لأنّه أصبح مقتنعا بأنّ التّعليم الزّيتوني لم يعد متوافقا مع ما يتطلّبه المجتمع التّونسي من حيويّة ، وروح العصر، وبقي التّعليم الزّيتوني على حاله، ولعلّ السّبب في ذلك يعود إلى عدم توفّر المدرّسين الأكفّاء للقيام بتلك المهمّة ، ووقوف الاستعمار حجر عثرة في سبيل تطوير الزّيتونة ( عبد الله، الطاهر. المرجع السابق . ص 221) ونهضة المجتمع التّونسي .

وفي إطار محاولة إصلاح الزّيتونة تمّ تأسيس المدرسة الخلدونيّة في 22 ديسمبر 1896 (الجابري ،محمّد صالح. (1983). النّشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريّين بتونس 1900 – 1962. الجزائر :الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ص 69) ، على يد جماعة من محرّري جريدة الحاضرة ـ التي تأسست سنة 1888 ـ وثلّة من خريجي المعهد الصادقي الذين تلقّوا ثقافة عصريّة وتعرّفوا على أفكار المصلحين التّونسيّين (العيّادي ،توفيق .( 2005) . حركة الشباب التونسي 1907 – 1912 . تونس عبر التاريخ ، (ج3 )، مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعيّة. تونس:

[1] ) **الشّيخ قبادو**: ينحدر من أسرة تونسية شريفة النسب ، ولد سنة 1812 ،كان شاعرا و متصوفا و مربيا توفي سنة 1871.

[2] ) **بيرم الخامس**: ولد بمدينة تونس في مارس 1840 ، ينتمي إلى أسرة تونسية شريفة، التحق مبكّرا بجامع الزّيتونة ،كان مولعا بالسياسة منذ صغره و متأثرا بأفكار الوزير خير الدّين الذي عهد إليه سنة 1874 بالإشراف على إدارة الأوقاف ثمّ عضوا في المدرسة الصّادقيّة 1875 ، والإشراف على المطبعة الرسمية ، فأصدر صحيفة الرائد التونسي، توفي سنة 1889.

، ص 65) ، وكانت الخلدونيّة تابعه للزّيتونة، ومتعاونة معها بغية تحقيق نهضة ثقافيّة أحسن بالبلاد يدرس فيها طلبة الزّيتونة مختلف العلوم العصريّة، ( بن عاشور، محمّد الطّاهر.( 2006). أليس الصّبح بقريب . التّعليم العربي الاسلامي دراسة تاريخيّة وآراء إصلاحيّة .( ط1).تونس: دار سحنون للنشر والتّوزيع ، ص 102) وتنتهي بالإحراز على شهادة الباكالوريا العربيّة التي تهيئ الطّلبة للالتحاق بالجامعات العربيّة في المشرق، ومن ثمّ يمكن إمداد الجامع بمدرّسين قادرين على تحقيق الإصلاح المنشود ( عبد الله، الطاهر. المرجع السابق . ص 222).

احتفل رسميّا بتأسيسها في 15 ماي 1897، بحضور الوزير الأكبر، والمقيم العام، والكاتب العام للحكومة، ومدير التّعليم العمومي، وبالمناسبة ألقى الشّيخ سالم بوحاجب[1]( الزمرلي ، الصادق. المصدر السابق . ص ص 169 – 175) وهو أحد رموز الزّيتونة، والحركة الإصلاحيّة درسا افتتاحيّا حول تفسير آية " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"( سورة البقرة ، الآية 31 ) ، فذكّر بماضي الإسلام المجيد في ميدان العلم والتعلّم وبيّن منزلة العلوم الكونيّة في نظر الدّين الإسلامي ، وكيف تقهقر المسلمون بسبب ابتعادهم عنها(كريّم ،عبد المجيد.(2008). العمل الوطني من الاحتلال إلى الحرب العالميّة الأولى، موجز تاريخ الحركة الوطنية التّونسيّة (مقاربة ) 1881 – 1964 ، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة جامعة منّوبة. تونس: ص 27) ، كلّ ذلك من أجل توعية وتنوير العقل التّونسي وتنبيهه لما يحاك ضدّه، وضدّ هويّته الشّخصيّة.

ترأّس المدرسة الخلدونيّة محمّد الأصرم[2] ( الزمرلي ، الصادق. المصدر السابق . ص ص 177–185) الذي كان من أبرز النّاشطين فيها، إذ كانت تقدّم فيها محاضرات، ودروس شملت مختلف ميادين المعرفة والثّقافة، يلقيها أساتذة تونسيّون وأجانب، وأشهرهم الشّيخ سالم بو حاجب والأستاذ محمّد البشير صفر[3] (المصدر السابق . ص ص 121–131) الذي كان متّصلا بحركة الإصلاح الإسلامي ( الجابري ، محمد صالح. المصدر السابق . ص 70) وزعمائها حيث التقى بالشيخ محمّد عبده[4] (شريف، رضا . (2011). تجربة التجديد والإصلاح في فكر ابن باديس ومحمد عبده. الجزائر: مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع ، ص 14 ، 15) أثناء زيارته لتونس في سبتمبر 1903 حيث ألقى محاضرة بالخلدونية حول "العلم والتّعليم"، وبزعيم النهضة الوطنية المصرية مصطفى كامل، وقد بلغ عدد مقالاته بجريدة الحاضرة ثمانية وخمسون خطبة أو افتتاحية في السّياسة، والفلسفة، والتّاريخ، وكانت دروسه بجمعية "الخلدونية" إيقاظا للهمم وتحريكا لها، ( الشابي ، محمد لطفي. المرجع السابق .) وفضحا للسّياسة الاستعماريّة حتّى أصبحت تلك الدّروس معهدا تتلقّى فيه التّوجيهات القوميّة قبل التّوجيهات العلميّة، الأمر الذي أدّى إلى التحاق الطّلبة الزّيتونيين بها، ولقيت مساندة، ودعما من بعض كبار المسؤولين الفرنسيين أهمّهم المقيم العام روني ميي ( René Millet ) الذي عرف باحترامه للثّقافة العربيّة

---

[1] ) **سالم بوحاجب**: ولد عام 1827، وهو أحد رواد الإصلاح، كان قاضيا ومدرسا ، وشاعرا ولغويا بارعا، وإماما خطيبا، وأول المجددين للخطاب الديني، بما يتماشى مع قضايا العصر، ونقد المعاملات، والإشارة إلى المسائل السياسية، وكان من رجال خير الدين التونسي، والمساندين لإصلاحاته، توفي سنة 1924 .

[2] ) **محمّد الأصرم**: أصيل مدينة القيروان، ولد سنة 1858 ، تعلّم بالمعهد الصّادقي وتابع دروس جامع الزّيتونة، ثمّ سافر إلى فرنسا لاستكمال دراسته ، و بعد عودته إلى تونس كان من بين الذين كلّفهم الوزير خير الدّين بمهمّة الإشراف على دواليب إدارة البلاد، حيث عيّن مدرّسا بالمدرسة العلويّة، ثمّ تقلّد منصب مدير إدارة الغابة، ثمّ بعد تأسيس المدرسة الخلدونيّة 1896 كان من أساتذتها ونشطائها، شارك في المؤتمر الاستعماري المنعقد بمرسيليا 1906 أين عرّف بالقضيّة التّونسيّة، درّس بالمدرسة العليا للغة والآداب العربية، وبالمدرسة الصّادقيّة، توفّي سنة 1925 .

[3] ) **البشير صفر**: ، ولد سنة 1865 بتونس، تعلّم بالمدرسة الصّادقية، وحظي برعاية من خير الدين، ثمّ سافر إلى فرنسا لاستكمال دراسته، وبعد عودته إلى تونس انتسب إلى الإدارة ، وكان أحد مؤسسي الخلدونيّة 1896 ، وأحد محاضريها في التاريخ الإسلامي والإفريقي، ونشر دراساته في جريدة الحاضرة، ولكنه ابعد عن تونس، وعين واليا على سوسة، فتفرغ لدراساته التاريخية، وألف كتابه "مفتاح التاريخ" توفّي سنة 1917.

[4] ) **محمد عبده**: هو محمد عبده بن حسين خير الله ، ولد سنة 1266 هـ / 1849 م بمصر ، و توفّي في 1323هـ / 1905 م ، يعتبر من أهمّ رجال الإصلاح في التاريخ الحديث، وله العديد من المؤلفات في هذا الجانب.

الإسلاميّة، (كريم ، عبد المجيد. المرجع السابق ، ص 27.) في حين أنّ أساتذة الجامع الأعظم انقسموا إلى فريقين بين مؤيّد ومعارض لها ولتوجهاتها، (العيادي، توفيق. المرجع السابق ، ص 65) ولم يقتصر موقفهم على ذلك فحسب، بل ناصبوها العداء و أسموها " الخل ودونيّة " تهكّما واستصغارا من شأنها، ولقّبوا أستاذها البشير صفر ب" البشير كفر".(كريم، عبد المجيد. المرجع السابق ، ص 27.).

والأمر ذاته بالنّسبة للمتعصّبين من المعمّرين الذين رأوا في هذه المدرسة خطرا كبيرا، وأنّها ليست إلّا مركزا من الدّعاية للجامعة الإسلاميّة التي تهدف إلى توحيد المسلمين تحت راية السّلطان العثماني لمجابهة التوسّع الاستعماري الأوربيّ، وأنّها سوف تحدث استفاقة في أوساط التّونسيّين، وتجعلهم يطالبون فرنسا بحقوقهم، فكثّفوا ضغطهم على المقيم العام روني ميي حتّى يتخلّى عن دعمه لها( العيادي، توفيق. المرجع السابق ، ص ص 65-66).

لم تثن الصّعوبات التي واجهتها المدرسة الخلدونيّة من عزيمة القائمين عليها فازدهرت وتواصل تفتّحها على محيطها وإشعاعها، وأضافت إلى تعليمها العاديّ دروسا ليليّة للأميّين، وأسّست لها شهادات في التّعليم التّطبيقي كالهندسة والطوبوغرافيا ، وفتحت مكتبة أمّها أكثر من 4500 قارئ سنة 1905 ، وهكذا أصبحت الخلدونيّة بمثابة جامعة شعبيّة حقيقيّة تلبّي رغبة التّونسيّين المعروفة في العلم والتعلّم وتحبط مخطّطات الاستعمار، غير أنّ ضيق مقرّها وتواضع إمكانيّاتها الماديّة لم يمكّن الخلدونيّة من استيعاب أكثر من 150 طالبا مقارنة مع طلبة جامع الزّيتونة الذين تجاوز عددهم ال 700 ، لذلك ارتفعت الأصوات منادية بضرورة إصلاح التّعليم الزّيتوني محاكاة لما هو عليه الحال في الخلدونيّة (كريم ، عبد المجيد. المرجع السابق ، ص 28.).

لقد أدخلت الخلدونيّة حيويّة ملحوظة على السّاحة الفكريّة التّونسيّة في مطلع القرن العشرين، ولكن الواقع بيّن أنّ حركة الإصلاح و التّحديث في تونس مازالت تحتاج إلى روافد أخرى تدعمها وتشدّ من أزرها ، فتقرّر بعث " جمعيّة قدماء الصّادقيّة " سنة 1905(نفسه ، ص ص 28-29.) .

تأسّست الجمعية الصّادقيّة في 23 ديسمبر برئاسة خير الله بن مصطفى[1] ( الزمرلي ، الصادق. المصدر السابق . ص ص 319-323) ، غير أنّ علي باش حمبة الذي تولّى وكالة أحباسها كان هو المسيّر الفعلي لها، والمشرف على معظم أنشطتها، وخاصّة منها الثّقافيّة كتنظيم المحاضرات والدّروس، حتّى أصبحت جامعة شعبيّة تضاهي الخلدونيّة، خاصّة أنّها دعت إلى الأخذ بالأفكار العصريّة والتّحديث( العيادي، توفيق. المرجع السابق ، ص 66).

وأغلب الذين ساهموا في تأسيسها ـ رغم ثقافتهم المزدوجة ، وتشبّعهم بروح الثّورة الفرنسيّة ـ كانوا من قادة الحركة الإصلاحيّة الذين تعلّموا في الزّيتونة ، وتخرّجوا من المعهد الصّادقي، ونشطوا في الخلدونيّة ، أمثال خير الله بن مصطفى ، وعلي باش حامبة الذي كان أنشط عضو فيها، وهو الذي حرّر التّقرير الأوّل لإنشائها، وعبد الجليل الزاوش[2] ( شترة ، خير الدّين: ج3 ، المرجع السّابق ، ص ص 44-45.) وأحمد الغطّاس[3] ( الزمرلي ، الصادق. المصدر السابق . ص ص187 – 190) ، وحسين بوحاجب ، وحسن قلاتي وغيرهم (كريم ، عبد المجيد. المرجع السابق ، ص 29.).

---

[1] ) **خير الله بن مصطفى** : من مواليد سنة 1867 ، ذو أصل تركي ، تعلّم بالمدرسة العلويّة ، ثمّ عيّن مدرّسا بالمعهد الصّادقي، ثمّ مترجما عدليا لدى المحكمة المختلطة بتونس ، ترأّس جمعيّة قدماء الصّادقيّة سنة 1905 ، وشارك في تحرير جريدة التونسي ، ساهم في عدّة إصلاحات في مجال التّعليم ، توفي سنة 1925.

[2] ) **عبد الجليل الزاوش**: ولد بتونس سنة 1873 ، من أصل جزائري من عائلة معروفة بخدمتها للعائلة الحسينيّة، التحق بمعهد سان شارل في مرحلته الثانويّة، أين تعلّم النّظم الأجنبيّة، ليلتحق في سنة 1897 بكلية الحقوق بباريس ليتحصل عام 1900 على الإجازة ، ويعود إلى تونس حيث مارس أنشطة سياسيّة واقتصاديّة متنوّعة، منها والياً على سوسة 1917 وشيخ مدينة تونس 1934، ووزيرا للعلم والاستشارة عام 1935، ثمّ وزيرا للعدل 1936 ، ليستقلّ منها سنة 1943 ، مع تشكيل الوزارة الوطنيّة التي ألّفها محمّد المنصف باي، توفّي في 14 جانفي 1947.

[3] ) **أحمد الغطّاس**: ولد سنة 1875 ، من أسرة برجوازيّة ، درس مرحلته الثانوية بمدرسة القديس لويس بتونس، واستكمل دراسته بفرنسا أين تحصّل على الإجازة في الحقوق، وبعد عودته إلى تونس سنة 1897 عزم على المساهمة في نهضة بلاده فانضم إلى المدرسة الخلدونية ونشط فيها ، ويعتبر أول محام تونسي تخرج من الجامعات الفرنسيّة ، توفّي سنة 1926.

نشطت الجمعيّة الصّادقيّة نشاطا مكثّفا ، حيث قدّمت بين أفريل 1906 وأفريل 1907 : 48 محاضرة ، منها 27 بمقرّ الجمعيّة ، و57 بمختلف أنحاء العاصمة تمحورت حول مواضيع متنوّعة ، وقد تميّزت الصّادقيّة عن الخلدونيّة بتفتّحها أكثر على الحضارة الغربيّة بحكم ثقافة المشرفين عليها، فاستدعت لإلقاء محاضراتها كتّابا فرنسيّين معروفين مثل جول برازون ( Jules Brazon) وشارل جينيو (Charles Géniaux ) وغيرهم، وهدفت من ذلك إلى الاستفادة من تقدّم المعرفة لدى الأوربيّين، وتبليغ صوت التّونسيّين إلى الفرنسيّين بلغتهم (المرجع السابق ، ص ص 29–30).

ولتأكيد توجّههم الوطني ، وتجذّرهم في حضارتهم استدعى مسؤولو قدماء الصّادقيّة شيوخا زيتونيّين معروفين لإلقاء مسامرات ( محاضرات ) في مقدّمتهم الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور[1] ( الجابري ، محمد صالح. المصدر السابق . ص ص 65–66) الذي تحدّث عن أصول التقدّم ، والمدنيّة في الإسلام والشيخ محمّد النّخلي[2] (المرجع السابق . ص ص 64–65) عن دولة المأمون، والشّيخ محمّد الخضر حسين عن الحريّة في الإسلام ، كانت كثيرا ما تتخلّلها نقاشات ، ومساجلات حول تجاوزات الإدارة الاستعماريّة ووضعيّة التّونسيّين المتردّية وحقوقهم المهضومة رغم أنّ القانون يمنع على الجمعيّات الخوض في المسائل السّياسيّة ، والدّينيّة (كريم ، عبد المجيد. المرجع السابق ، ص 30) ، وهي مواضيع مهمّة كانت عبارة عن دعوة مبطّنة للتّونسيّين لأخذ العبر من التاريخ الإسلاميّ ، والاستفادة منها ، خاصّة حقّ الإنسان في الحريّة ، وهو الحقّ الذي تكفله الدّيانات السّماويّة ، ومختلف القوانين الوضعيّة .

لقد مهّد العمل الثّقافي والتّربوي إلى جانب العمل الصّحفي الطّريق لانبعاث النّشاط السّياسي انطلاقا من سنة 1906 بقيادة نخبة متخرّجة أساسا من المعهد الصّادقي ، والكليّات الفرنسيّة أطلق عليها اسم " حركة الشّباب التّونسي " التي ظهرت سنة 1907 بإصدارها لجريدة التّونسي ( le tunisien) الناطقة بالفرنسيّة برئاسة علي باش حمبة (الشريف ، محمد الهادي. المرجع السابق ، ص 113) ، ثمّ انظمّ إليه عبد العزيز الثعالبي الذي أصبح من أنشط مريديه ، وما لبث أن أصدر الطّبعة العربيّة من التّونسي سمّيت "الإتّحاد الإسلامي " في19 أكتوبر 1911 (خالد ، أحمد. (2001) . الزعيم عبد العزيز الثعالبي و إشكالية فكره السياسي. تونس: الدار العربية للكتاب ، ص 47) ، وترأّس بنفسه تحريرها (الثعالبي ،عبد العزيز .( 1975) تونس الشهيدة .( ط1). بيروت: دار القدس ، ص 11) ، وتركّزت مطالب الحركة على مجموعة من الأصعدة أهمّها الّصعيد السياسي بالدفاع عن سياسة "التشريك (Association) "[3] من خلال تمثيل التونسيين بالمجلس الشوري الذي أحدث سنة1891 ، وعلى الصّعيد الاقتصادي بالمساواة بين الفرنسيين ، وعلى الصّعيد التّربوي بالتّركيز على مؤسّسات تعليم مزدوج باللّغتين العربيّة والفرنسيّة، والمناداة بإجبارية المرحلة الابتدائية ومجانيتها، أمّا الصّعيد القضائي فمن خلال إصلاح الهياكل القضائية .

ويتبيّن من خلال ما سبق أنّ الحركة لم تدرج مطلب أو قضية الاستقلال في برنامجها، نظرا لطبيعة موازين القوى من جهة وهشاشة المرحلة من جهة أخرى، فإنّها ساهمت في الترويج لجملة من الأفكار الجوهرية التي ستمكّن الحركة الوطنية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى من تراكم رصيد مرجعي متنوّع وفي مقدّمة هذه المبادئ : التمسّك بدستور 1861 ،

---

[1] ) **محمّد الطّاهر بن عاشور** : ولد بتونس العاصمة 1879 ، وهو من كبار علماء جامع الزّيتونة ، تتلمذ على يديه الكثيرون ،كان له دور كبير في تطوير مناهج التّعليم الزّيتوني وإصلاحها ، تقلّد عدّة وظائف علميّة وإداريّة ، ومن أشهر مؤلّفاته : التّحرير والتّنوير، مقدّمة شرح الحماسة للمرزوقي ، أليس الصّبح بقريب ، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام ، شرح ديوان بشّار والنّابغة الذّبياني. توفي بتونس سنة 1973.

[2] ) **محمّد النّخلي**: ولد بالقيروان سنة 1869 ، شاعر و فقيه من أعلام مدرّسي جامع الزّيتونة ، تميّز بنظرته الإصلاحيّة وشدّة تأثّره بآراء محمّد عبده وجمال الدّين الأفغاني. وتوفّي بتونس العاصمة سنة 1924.

[3] ) أي إشراك العنصر التّونسي في تسيير شؤون بلاده.

والمطالبة بإعادة إحيائه، مع أنّ هذا المطلب لم يرد في برنامج 1907، بل أثير في مناسبات عديدة لمطالبة سلط الحماية بضمانات سياسية ، وقانونية تكفل حقوق التّونسيين.

وتكمن أهميّة الحركة في أنّه كان لها السّبق في بلورة نظرة حديثة للانتماء الوطني بتحديد المصطلحات الدّالة على الهوية الوطنية، تتلاءم مع روح العصر، وتجديد الخطاب السياسي التونسي بمفاهيم جديدة في اللّغة السّياسية المتداولة مثل مصطلح " الشعب التونسي" (الشابي ، محمد لطفي. المرجع السابق) ، ومصطلح " الأمّة التّونسيّة "(الشريف ، محمد الهادي. المرجع السابق، ص 113).

ونتيجة تزايد وتيرة نشاط حركة الشّباب التّونسي خاصّة عقب أحداث الزلّاج 1911 والتّرامواي 1912 اعتقلت سلط الحماية الفرنسيّة سبعة من قادتها، أهمهم علي باش حامبة والشيخ عبدالعزيز الثعالبي، وأبعدتهم خارج البلاد، وأوقفت جريدتهم ونظمت حملة إرهاب واعتقالات واسعة بين السكّان، وفرضت حالة حصار عام على البلاد التّونسيّة، الشّيء الذي جعل نشاط الحركة يبرز في المهجر بقيادة الأخوين علي ومحمّد باش حامبة والشّيخان صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي، حيث استقرّ علي باش حامبة زعيم الحركة نهائيا بالآستانة (مناصرية ، يوسف. المرجع السابق، ص 46)، أين تقلّد خطّة مستشار الحكومة التركية، واضطلع بمهام تنسيق نشاط الوطنيّين التّونسيين في المهجر بوصفه رئيس " لجنة تحرير المغرب العربي" سنة 1916(الشابي ، محمد لطفي. المرجع السابق). وهكذا بدأ مفهوم الاستقلال يتبلور لدى الحركة الوطنية.

**ثالثا : النخبة الزّيتونيّة وتبنّي مبدأ الاستقلال :**

بدأت المقاومة الشّعبيّة التّونسيّة للاحتلال الفرنسي منذ الوهلة الأولى، وفي طليعة المقاومين رجال الزّيتونة، المؤمنين بضرورة الذّود عن الدّين والوطن، وبمشروعيّة الجهاد، وكان أبرزهم الشّيخ المكّي بن عزّوز[1] ( شترة ، خير الدّين: ج3 ، المرجع السّابق ، ص ص 74) وهو أحد شيوخ جامع الزّيتونة الذي عرف بروحه الثّوريّة الرّافضة للمستعمر، لذلك كوّن مجموعة من الشّباب التّونسي الثوري وقاوموا الاستعمار، وبسبب نشاطه المعادي تم نفيه ، فتوفي بتركيا، ولكن أفكاره لم تمت ، إذ تبنّاها ثلّة من الشّباب الوطني المتحمّس – كان من بينهم عبد العزيز الثّعالبي – وسرعان ما اجتمعوا وأسّسوا جريدة بالفرنسيّة للدّفاع عن مصالح التّونسيّين أسموها " المستقبل العربي "، وأخرى بالعربيّة باسم " حبيب الأمّة " ( عبد الله ، الطاهر: ج3 ، المرجع السّابق ، ص ص 30–31) ، ثمّ " سبيل الرّشاد " التي صدر عددها الأوّل في 16 ديسمبر 1895" ( خالد ، احمد، المرجع السّابق ، ص 45) تبنّى فيها مؤسّسها عبد العزيز الثعالبي مبدأ الإصلاح والتوجيه، على غرار جريدة الحاضرة الأسبوعيّة التي كانت أوّل جريدة عربيّة غير رسميّة بتونس كان يديرها فرسان الفكر الإصلاحي البشير صفر ، وسالم بوحاجب و محمّد السّنوسي(المرجع السّابق، ص 21).

ورغم انتهاج التّونسيّين للعمل الإصلاحي في شتى المجالات الفكرية والعملية، إلّا أنّ محاولاتها باءت بالفشل بسبب تصلّب الإدارة الفرنسيّة الذي اتّضح جليّا بعد أحداث الزلّاج، والترامواي وخنق الحريّات ، وإبعاد الوطنيين ، الأمر الذي أدّى بالوطنيّين التّونسيّين إلى الإعراض عن مبدأ الإصلاح ، وسياسة التّشريك إلى المطالبة بحقّ الاستقلال والتحرر .

لم تحدّ السّياسات الاستعمارية من عزيمة رجال الحركة الوطنيّة التّونسيّة الذين واصلوا نشاطهم في الدّاخل والخارج ، حيث استمرتّ تحرّكات زعيم حركة الشّباب التّونسي علي باش حامبة في عاصمة الدّولة العثمانيّة ، إذ أشارت الوثائق

[1] ) **المكّي بن عزّوز** : هو محمّد المكّي بن مصطفى بن عزّوز ، ولد بنفطة سنة 1854 ، تعلّم في الزاوية الرحمانيّة ، التي أنشأها والده ، ثمّ انتقل إلى جامع الزّيتونة ، إلى أن أصبح من كبار علمائه ، وبسبب مضايقات الاستعمار هاجر إلى الأستانة ، حيث عيّن مدرّسا للحديث والفقه حتى وفاته سنة 1915 ، ومن آثاره : " قواعد الإسلام " ، " الفتوحات الربّانيّة " ، هيئة النّاسك " ، " ديوان شعري ".

الأرشيفية الألمانية إلى مخطّطه في تحرير المغرب العربي بحدّ السّلاح ، ولئن لم يتمّ تحقيق هذا المشروع بحذافيره فإنّ الرّجل شارك إلى جانب محمّد العتّابي من المغرب الأقصى في المؤتمر الإسلامي المنعقد بستوكهولم سنة 1917 ، والذي ضمّ ممثّلين عن جميع البلدان الإسلامية المحتلّة ، وأقرّ مطلب استقلال المغرب الأقصى (الشّابي ،محمّد لطفي . المرجع السّابق) ، أمّا أخوه محمّد باش حامبة فقد تحوّل إلى سويسرا حيث استقرّ بجنيف ، وأصدر مجلّة المغرب La Revue du Maghreb "

(Rodd, Balek.( 1922). La Tunisie après la guerre. Paris: publication du comite de l'Afrique française, p 69) الشّهرية والنّاطقة باللّغة الفرنسيّة التي أعلنت منذ عددها الأول سنة 1914 بصريح العبارة عن " إفلاس سياسة التّشريك " التي كانت تنادي بها جريدة " التونسي "( خالد ، احمد. المرجع السّابق. ص136) ثم طلبت بكلّ وضوح في السنة الموالية (1917) وباسم الشعب التونسي إصدار دستور يمنح ضمان الحقوق والحريات الفردية وإصلاحات سياسية واسعة، (الشّابي ،محمّد لطفي . المرجع السّابق) كما أقرّت توجّهها المغاربي ببناء علاقات نضاليّة بين بلدان المغرب العربي، وإرساء مشروع وحدة نضال شبّان المغرب العربي، والتّخطيط لعقد مؤتمر للتّونسيّين والجزائريين ، غير أنّ المشروع أحبط بحملة من الصّحافة الاستعمارية، غير أنّ الفكرة بقيت قائمة في ذاكرة الشيخ عبد العزيز الثعالبي خلال إقامته بالأستانة ، وسعى لتحقيقها على أرض الواقع ( خالد ، احمد. المرجع السّابق. ص ص136-137 ).

ولئن كان لقيام الثورة البلشفية ( أكتوبر 1917) تأثير على مواقف الوطنيين التّونسيّين، فإنّ موقف المجلة النّضالي من أجل تحرير الشّعوب قد تدعّم إثر الإعلان عن مبادئ الرئيس الأمريكي ولسن (Wilson) الأربعة عشر التحرّرية في مؤتمر السّلام في سبتمبر 1918 (Rodd Balek : op .cit , p 68) الذي عقد بقصر المرايا بفرساي في فرنسا ، فانتقلت توجّهات النّخبة التّونسيّة من فكرة الدّستور إلى فكرة الاستقلال. وهو يهيب بالضمير العالمي ليعترف له بحقّه في العيش حرّا مستقلاّ، ولم يقتصر عمل محمّد باش حامبة على إدارة "مجلّة المغرب" بل شمل إنجاز عدّة مؤلّفات دعائية باللغة الفرنسية منها: العدلية التونسية ( جنيف1917 )، الشعب الجزائري التونسي وفرنسا(جنيف1917 ) ، مناورة فرنسية: الإصلاحات الأخيرة بالجزائر( جنيف 1918 ) ، الحماية الفرنسية بتونس ( جنيف1918 ) ، كما شارك في أشغال المؤتمر الثالث للقوميات المضطهدة المنعقد بلوزان من 27 إلى 29 جوان 1916 وعرض فيه مطالب مسلمي الجزائر وتونس(الشّابي ،محمّد لطفي . المرجع السّابق).

ويعدّ الشيخ صالح الشريف من أبرز قادة الحركة الوطنية في المهجر أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ كلّفته الحكومة التركية بالقيام بمهمّة خاصة في ألمانيا صحبة الشيخين إسماعيل الصفايحي ومحمّد الخضر حسين، تمثّلت في الاتّصال بأسرى الحرب المغاربة من التونسيين والجزائريين والمغاربة، وتنظيمهم ضمن فرقة واحدة تزوّد بالسّلاح والذخيرة، وترسل عن طريق الغوّاصات إلى طرابلس الغرب ، وكذلك بادر بتكوين " لجنة استقلال تونس والجزائر " ببرلين للدّفاع عن قضايا الشعوب المغاربية ، ومن مؤلّفاته الدعائية أيضا: حقيقة الجهاد ( بارن 1916) تونس والجزائر ( بالاشتراك مع إسماعيل الصفايحي برلين 1916 ) ، حجج دامغة حول وجوب خروج الفرنسيين من تونس(الشّابي ،محمّد لطفي . المرجع السّابق) ، كلّ ذلك يدلّ على مدى تجذّر فكرة الاستقلال لدى الوطنيين التّونسيّين، وسعيهم الحثيث لنشره، والتّعريف بالقضيّة التحرّريّة للشّعب التّونسي.

وأمام هذا النّشاط المكثّف للوطنيّين التّونسيّين في المهجر اندلعت مقاومة قبائل الجنوب التونسي التي استجابت لدعوة السّنوسي الجهادية، لكنّ القوّات الفرنسيّة سيطرت على الوضع الدّاخلي من جديد، وذلك دفع النّخبة الوطنيّة التّونسيّة إلى تطوير نضالها، وتنظيمه في إطار حزب قانونيّ يكون هدفه الأوّل، والأساس هو مطلب الاستقلال.

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى، أرسل الوطنيّون التّونسيّون الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى باريس في 10 جويلية 1919 لعرض القضية التونسية على مؤتمر الصلح، مثل غيره من زعماء الشّرق محاولا إقناع الرّأي العام الفرنسي لتلبية مطالب التّونسيّين، فرفع عريضة طالب فيها بإنصاف الشّعب التّونسي، وحقّه في الاستقلال(محفوظي ، محمد (28،1952 نوفمبر ). ماذا يجب أن تعرف عن المشكلة التونسيّة تاريخها –تطورها – كيف حلها ؟ مجلة المنار، ع 12 ، ص 4) ، وأثناء إقامته هناك اتّصل الثعالبي بمعيّة المحامي أحمد السقا، بالأحزاب الفرنسيّة ونشر كتاب " تونس الشهيدة " الذي أصدره دون ذكر اسمه بعنوان: " La Tunisie Martyre " (Rodd Balek : op .cit , p74)، سنة 1920 حمّل فيه الاستعمار الفرنسي مسؤولية حالة البؤس ، والفقر التي آل إليها الشّعب التونسي وأبرز من خلاله مطالب التّونسيّن.

وبينما كان الشّيخ الثّعالبي وصديقه أحمد السقّا يحاولان في باريس استمالة المتحرّرين الفرنسيين للمسألة التّونسيّة، التفّ الوطنيّون الذين مكثوا بالعاصمة التّونسيّة حول بعضهم، وكرّروا الاجتماعات فيما بينهم، وحرّروا العرائض التي وجّهوها إلى باريس لمساندة الثّعالبي، في الوقت الذي أثار مشروع الإدارة الفرنسيّة الرّامي إلى انتزاع قطع أرض من الأوقاف الخاصّة سخط جميع الوطنيّين، وتسبّبت في تحقيق الوحدة بين الشبّان التّونسيّين المتخرّجين معظمهم من الجامعات الفرنسيّة، وبين شيوخ جامع الزّيتونة، فما إن وصل كتاب تونس الشّهيدة إلى تونس حتّى تبنّى زعماء الحركة الوطنيّة التّونسيّة فكرة الدّستور، وجعلوها أهمّ مطلب من المطالب الواردة في البرنامج الذي وضعوه بعد جهد جهيد، وعندما اطّلع عبد العزيز الثّعالبي على ذلك البرنامج صادق عليه، وتقرّر تقديمه إلى الباي، والمقيم العام ، ورئيس مجلس الشيوخ، ومجلس النوّاب في فرنسا(القصّاب ، أحمد .(1986). تاريخ تونس المعاصر 1881 – 1956 .ترجمة حمادي الساحلي.( ط1) . تونس : الشركة التونسية للتوزيع ، ص 504).

وفي 16 جوان 1920 انتظم في مقرّ الإقامة العامّة حفل استقبال رسميّ بمناسبة قدوم السيّد دي كاستيون سان فيكتور ( de kasttion san victor ) المقيم العام بالنّيابة ألقى أثناءه الشّيخ محمّد الصّادق النّيفر أحد مدرّسي جامع الزّيتونة خطابا باللغة العربيّة احتجّ فيه احتجاجا صارما على تدخّل فرنسا في شؤون البلاد الدينيّة ( قضيّة الأوقاف الخاصّة) ، واتّخذ فيه موقفا مواليا للمطالب الوطنيّة، وطالب الشّيخ أمام أسمى المسؤولين الفرنسيين منح دستور لتونس. وبعد يومين تولّى الشّيخ الصّادق رئاسة الوفد الذي قدّم المطالب الدّستوريّة إلى الباي محمّد النّاصر، في حين قدّمه الشّيخ الثّعالبي في باريس إلى رئيس مجلس النوّاب ومجلس الشّيوخ ، والذي تضمّن 08 نقاط أساسيّة (نفسه . ص ص 504-505).

وبذلك تشكّلت على السّاحة السيّاسيّة التونسيّة أربعة اتّجاهات؛ الأوّل اتّجاه ثوريّ دعا إلى **الاستقلال الكامل،** ومعاداة الفرنسيين علانية ، و قد مثّله محمد باش حامبة الذي كثيرا ما حاول التّأثير على عبد العزيز الثعالبي لاتّباعه وتحريضه على المطالبة بحقّ الاستقلال التّام، وألحّ عليه في مراسلاته على حثّ التونسيين على الإعلان عن رفضهم لسلطة الحماية والتّصريح بالانفصال عن فرنسا، لأنّ سياسة الرّجاء ، والتّسامح لم تعد تجدي نفعا " وأنّ زمن العمل في الخفاء قد ولّى وراح ، ويجب المطالبة بالاستقلال صراحة دون مراوغة ، والإعلان عن الهدف للشّعب ( الاستقلال) ، وهو الطّريق السّليم لأنّ فرنسا مازالت تعتبرنا شعبا مغلوبا على أمره ، رغم ما ضحّينا به من أجلها".( مناصريّة ،يوسف .( 1986). الحزب الحر الدستوري التونسي 1919 – 1934 . رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، ص 53) والاتّجاه الإصلاحي الذي نادى بالمساواة بين الفرنسيين، والتّونسيّين، وتحقيق حكم ذاتيّ في إطار الجمهوريّة الفرنسيّة، ومثّله حسن قلّاتي، والاتّجاه الثّالث اتّجاه معتدل سعى إلى النّهوض بالتّونسيين في إطار سلط الحماية ومثّله فرحات بن عيّاد، وعلي كاهية

والشّاذلي القسطلي، أمّا الاتّجاه الرّابع فهو الاتّجاه الواقعي المرن، ومثّله عبد العزيز الثعالبي، ومحمّد الرّياحي، وابن يحي، وقد استغلّ أصحاب هذا الاتّجاه ظروف نهاية الحرب فطالبوا بالاستقلال ثمّ عدلوا عن هذه السّياسة لما رأوا عدم جدواها، وسلكوا بدلا من ذلك منهج الإصلاح(نفسه . ص 56).

كان الاتّجاه الذي سلكه عبد العزيز الثّعالبي واقعيّا، عربيّا إسلاميّا في أصله ، ولم يكن أصحابه يؤمنون في قرارة أنفسهم بسياسة التّعاون مع الفرنسيّين، إنّما آمنوا منذ البداية بالاستقلال الكامل، وقد ظهر ذلك جليّا في محافظتهم على أصالتهم العربيّة الإسلاميّة التي تمثّلت في سياسة عبد العزيز الثعالبي، وتركت أثرا على باقي الاتجاهات فسارت في ركابه، لكنّ الآية انعكست بعد ذلك ، فرضخ الاتّجاه الواقعي إلى الاتّجاهين الآخرين الإصلاحي والمعتدل، وسار على منوالهما ، وصارت مبادئهم قدرا مشتركا، وبذلك أصبح الاتّجاه الرّابع واقعيّا مرنا بعد أن كان ثوريّا متصلّبا،". ( مناصريّة ،يوسف الحزب الحر الدستوري التونسي،المرجع السابق ، ص 57) ونلمس هذا التحوّل جليّا واضحا في أهداف برنامج الحزب الحرّ الدّستوري التّونسي السياسية .

ولعلّ ما ساهم في ذلك فشل الحزب الاشتراكي الفرنسي في انتخاباته شهر أكتوبر 1919 (نفسه . ص 53) ، وهو الحزب الذي علّقت عليه النّخبة التّونسيّة بعض آمالها، لأنه كان متعاطفا مع القضيّة التّونسيّة، فكانت هزيمته ضربة قاصمة لهم خاصّة بعد فشل الوفد التّونسي وتهميش مطالبه ، ومطالب بقيّة المستعمرات في مؤتمر التّسوية بعد الحرب العالمية الأولى واقتناعهم أنّ مبادئ ولسن، إنّما هي حكر على شعوب أوربّا وقوميّاتها لا على شعوب المستعمرات المستضعفة ، وأنّ مجرّد التّفكير في المطالبة بحقّ تقرير مصيرهم، وإنصافهم هي ضرب من الخيال، فضلا عن تشتّت قادة الحركة الوطنيّة التّونسيّة بين مختلف أنحاء العالم، واختلاف إيديولوجياتهم وأفكارهم من جهة، وتعنّت الإدارة من جهة أخرى، الأمر الذي أدّى إلى بروز آراء مختلفة ، حاول عبد العزيز الثّعالبي ـ الذي أصبح زعيم الوطنيين التونسيين الأوّل ـ أن يوفّق بينهم .

أسّس عبد العزيز الثّعالبي الحزب الحرّ الدّستوري التونسي على مبادئ تقضي بإنقاذ تونس من نير العبوديّة، وإنهاء الوضع المأساوي عن الشّعب التّونسي، ومن أجل تكريس حقّه في التحرّر مثلما هي كلّ الشّعوب الحرّة ، والمطالبة بنظام دستوري، وتأليف حكومة وطنيّة مسؤولة أمام الشّعب، باعتبار أنّ تونس كان لها دستورا معلنا منذ 1861 فطالب الدّستوريّون بعودة العمل به ، وهو سرّ اختيار الحزب للتّسمية بالدّستوري (عقيّب، محمد السعيد.( 2010). الحزب الحر الدستوري التونسي ( القديم ) 1934 – 1956 . رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، ص 31) ، واعتمد الحزب في أرضيّته على اتّفاقيّة باردو " ماي 1881 " التي نصّت على أن يسيّر التّونسيّون بلادهم بمساعدة فرنسا التي تكتفي بالإشراف والحماية الخارجيّة، ( مناصريّة ،يوسف الحزب الحر الدستوري التونسي،المرجع السابق ، ص 54) أي المطالبة بالحكم الذّاتي للبلاد التونسيّة ، كما طمحوا من خلال الدّستور إلى الفصل بين السّلطات ، والضّمان لاحترام الحريّات ، ومنح نوّاب الشّعب حقّ المشاركة في الحكم ، وقد قامت إيديولوجيّة الإصلاح عند عبد العزيز الثّعالبي على أنّ التّراث العربي الإسلامي هو مصدر التّشريع الملائم للبلاد التّونسيّة والعربيّة، وأنّ العرب أمّة واحدة، ولابدّ لها أن تتوحّد، فرسم الحزب هدفه لإنقاذ الشّعب التّونسي من الاستبداد، ونيل الحقوق والحريّات كباقي الشّعوب الحرة. (عقيّب، محمد السعيد.المرجع السابق ، ص 31).

لقد مثّلت الأفكار الإصلاحيّة، ورصيد حركة الشّباب التّونسي الأرضيّة الصّلبة لإيديولوجيّة الحزب، خاصّة أنّ أغلب الدّستوريّين كانوا من الزّيتونيين،(عقيّب، محمد السعيد.المرجع السابق ، ص ص 31-32)، فكانت المطالبة بالاستقلال الذّاتي كمرحليّة أوليّة تمهيدا لتبنّي مطلب الاستقلال التّام ريثما تحين الفرصة، وهو ما توّج به المؤتمر الوطني التّونسي" مؤتمر ليلة القدر " الذي شاركت فيه مختلف أقطاب الحركة الوطنيّة التّونسيّة حتّى سمّي بمؤتمر الاستقلال 1946 ، حيث أجمع

الحاضرون لأوّل مرة على المطالبة بالاستقلال، ووضع حدّ لنظام الحماية، ورفض كلّ الإصلاحات الإدماجيّة التي تكرّس مبدأ السّيادة المزدوجة .

**ـ الخـاتمـة :**

لقد تبين ـ مما سبق ذكره ـ المكانة التّاريخيّة للزّيتونة ونخبها الفاعلة، ودورها في صياغة مطلب الاستقلال الوطني خلال الفترة المدروسة من الحقبة الاستعماريّة لتونس، ويمكن استخلاص ذلك في النّقاط التّالية :

ــ رغم المناهج العتيقة لجامع الزّيتونة في بعض الفترات، إلّا أنّ الفضل الأوّل يرجع إليه في محافظته على المقوّمات العربيّة والإسلاميّة للبلاد التّونسيّة ، وأمدّ تونس بخيرة رجالها الذين تربوا على مبادئ الوطنيّة والإسلام، وتزعّموا حركة النّضال المسلّح ، والسّياسي ضدّ الهيمنة الاستعماريّة الفرنسيّة ، دفاعا عن السّيادة الوطنيّة.

ـ لعب جامع الزّيتونة دورا فعّالا في الحركة الوطنيّة، وتجلّى ذلك في مواقفه من سياسات سلطة الحماية منذ بدايتها سنة 1881 خاصّة تلك التي استهدفت تغريب وفرنسة كلّ ما هو تونسيّ، وتعبئة الجماهير التّونسيّة ومساندتها خاصّة في مطالبها الإصلاحيّة .

ـ احتضنت المؤسّسة الزّيتونيّة القضيّة الوطنيّة، وساهمت إلى جانب المدرسة الخلدونيّة، والجمعيّة الصّادقيّة في إيقاظ الرّوح الوطنيّة ، وترسيخ مفهوم الوطنيّة لدى التّونسيّين التي ترتكز أساسا على ما يميّز المجتمع التّونسي من خصوصيّة ذاتيّة أهمّها اللغة العربيّة ، والدّين الإسلامي وهما عماد الهويّة الوطنيّة لتونس .

ـ إن التفتّح الذي عرفت به النّخبة الوطنيّة التّونسيّة ـ لاسيما عند نشطاء الخلدونيّة والصّادقيّة ـ يعكس صورة من صور المواجهة الثّقافيّة ، وإثبات القدرة على المطالبة بالاستقلال ، وعلى تسيير شؤون بلادهم دون أيّ وصاية خارجيّة ، وما دلّ على ذلك تفعيل شيوخ الزّيتونيّة للمحاضرات ، وما تبعها من نقاشات سياسيّة ، رغم الحضر المفروض عليهم.

ـ لقد مهّدت العمليّة الإصلاحيّة في الميدان الصّحفي والتّربوي والثقافي، والتي قادها الزّيتونيون، إلى تكثيف العمل السّياسي الوطني الذي أسفر على ميلاد حركة الشّباب التّونسي بزعامة علي باش حامبة ، ثم المطالبة بحقوقهم، وانتهت بالإعلان عن الحزب الدستوري، الذي قاد المسيرة السياسية من اجل التحرر والاستقلال.